المبحث التاسع

توهم الزيادة في صور العطف

ربما يتوهم المتعجل في بعض صور العطف من آيات الذكر الحكيم الاستغناء عن المعطوف أو المعطوف عليه فيتجرد لديه العطف من الفائدة ، وهذا ما لا يوجد في الكتاب العزيز .

توهم الزيادة في المعطوف عليه :

من الأمثلة التي قد يتوهم الاستغناء فيها عن المعطوف عليه : قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ (الكهف:٨٠) .

يقول الألوسي : « ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره ، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع » [(١)] .

والآية مسوقة لتفسير عمل قام به الخضر ، وكان مثار استنكار من موسى ـ عليهما السلام ـ وهو قتل غلام بغير جريمة توجب القصاص ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ (الكهف:٧٤)، فلو جاء التفسير بغير صورة العطف واكتفى بالكفر لأوهم أن ارتداد الأبوين ومما لأتهما له في ضلاله إنما كان بدافع الحب له .

فكان قوله ﴿ طُغْيَٰنًا ﴾ جوابًا شافيًا في أن كفرهما ليس طواعية بدافع الحب وحده ، وإنما كان بسبب طغيان الابن ، وحمله الأبوين عليه ، فيكون قد ارتكب أكثر من جريمة ، هي عقوق الوالدين ، وقتلهما ، لأن الكفر أعظم أنواع قتل النفس بتعريضها لعقاب الله تعالى ، وناهيك عنه قسوة ودوامًا ، وهنا يظهر

---

(١) روح المعاني ١١/١٦ .

الإحسان في عمل الخضر ـ عليه السلام ـ بعد تصوير بشاعة الجريمة التي كان الابن مُقْدِمًا عليها ، وتبدو علة القصاص .

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى : ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (النساء:١٠٢).

قد يقال : لم أمر أولاً بأخذ الأسلحة ، ثم أمر ثانيًا بأخذ الحذر والأسلحة والمقام واحد ؟ والجواب أن المقام قد يختلف في الآية الواحدة من جملة إلى جملة ، وذلك من دقائق القرآن . وهو ما راعاه النظم الكريم في اختلاف مهام الطائفتين ، حيث بدء إقامة الصلاة التي لا يتوقعها جيش الشرك يجعل مهمة الطائفة التي تحرس المصلين أسهل ، لأن العدو لم يتنبه بعد لانشغال المسلمين بالصلاة فيكفي أخذ الأسلحة ، أما الطائفة التي أكملت صلاتها مع الرسول فإن مهمتها ستتضاعف بتضاعف الخطر ، حيث يكون المشركون قد تنبهوا لصلاة المسلمين ، وأخذوا استعدادهم للهجوم ومباغتة المسلمين في صلاتهم ، ومن ثَمَّ دعت الضرورة إل مضاعفة الحذر والاستعداد ، فطولبوا بذلك ، هو ما لمحه السعد ـ رحمه الله ـ حيث قال : « وإنما اقتصر في الأولى على أخذ الأسلحة ، وههنا ضم إليه أخذ الحذر ، لأن الكفار حينئذ يتنبهون لكونهم في الصلاة فينتهزون فرصة الهجوم ، فاحتيج إلى زيادة التحفظ والتيقظ » [1] .

توهم زيادة المعطوف :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٧٤) .

قد يقال : حديث إبراهيم وخطابه لأبيه ، فما دخل القوم الذين عُطفوا عليه في الخطاب ؟ والجواب أن « آزر » لم يكن يتحدث باسمه ، وإنما كان يدافع

---

(١) حاشية السعد ٢/١٥٠ .

عن عقيدة آمن بها القوم ، وحجاج إبراهيم له كان يهدف إلى إبطال هذه العقيدة التي يدين بها قومه ، و« آزر » واحد منهم ، فلو قصر إبراهيم الخطاب على أبيه لكان مجرد نصح ابن رأى ضلالاً في أبيه فحاول هدايته والنجاة به ، وتلك فعال الأبناء ، لا مهام الأنبياء الذين تتجاوز رسالتهم محيط العواطف وصلات القرابة إلى نطاق إنساني يهدف إلى القضاء على الشر أينما كان ، وهداية الضال حيث وجد ، والبدء في الدعوة بالأب أو الأقربين بحكم أنهم أحق الناس بالاستماع وشد الأزر ووضوح شرف الغاية أمامهم ، حيث يقل اتهامهم له بمحاولة إضلالهم ، وبحكم أن الرائد لا يكذب أهله ، فهم الأجدر بمناصرته كما أنهم الأحق بالاستنقاذ من الهلكة .

وقد رأى الطاهر بن عاشور نكتة لا بأس بها في هذا العطف يقول : « وفائدة عطف ﴿ وَقَوْمَكَ ﴾ على ضمير المخاطب مع العلم بأن رؤيته أباه في ضلال تقتضي أن يرى مماثليه في ضلال أيضًا ، لأن المقام مقام صراحة لا يكتفي فيه بدلالة الالتزام ، ولينبئه من أول وهلة على أن موافقة جمع عظيم إياه على ضلاله لا تعضد دينه ، ولا تشكك من ينكر عليه ما هو فيه »[1] .

وعلى غرار ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفرقان:١٨) ، فإنه عطف الآباء عليهم لأنهم كانوا السبب فيما صاروا إليه من الكفر بتقليد الأبناء لهم ، فما كان يصد المشركين عن دين الله إلا هذا الاقتداء المذموم قائلين ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣) ، فوصمهم الله بالغفلة كما وصم آباءهم الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، ولذا يقول الشهاب : « قوله ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ ذكر ، لأن له مدخلاً في الغفلة »[2] .

وكما كان الآباء سببًا في صلاح الأبناء فاستحقوا معهم الذم والوعيد بالعذاب، كذلك يكون الآباء سببًا في صلاح الأبناء واستمرارهم على هدى الله ،

---

(١) التحرير والتنوير ، الجزء السابع ، القسم الثاني ، ص ٣١٤ .

(٢) حاشية الشهاب ٤١٣/٦ .

فيستحقون معهم تمام نعمة الله وفضله ، ولذا كان دعاء الملائكة للمؤمنين ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ ﴾ (غافر:٨)، ودعاء المؤمن لنفسه ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ (النمل:١٩) .

يقول الشهاب تعليقًا على هذه الآية : « وأدرج فيه ذكر والديه تكثيرا للنعمة أو تعميمًا لها ، فإن النعمة عليهما نعمة عليه ، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيما الدينية » [١] .

ومما يتوهم معه الزيادة في المعطوف قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ (يونس:٥٩).

ربما يظن ظان أن الرزق الذي أنزله الله حلال مباح ، والإنكار أن يجعل هذا الحلال حرامًا ، ويكفي في هذا أن يقال : فجعلتم منه حرامًا ، فما بال عطف الحلال عليه ؟ والجواب أنهم حين بدلوا شرع الله ولم يلتزموه ، وسولت لهم أهواؤهم أن يحلوا بعضه ويحرموا بعضه ، كان استحلالهم ما أحلوا بمحض أهوائهم ، وليس التزامًا لشرع الله فيه ، فصار الطيب بشرع الله خبيثًا بما شرعوه لأنفسهم ، ولو اقتصر الإنكار على تحريم البعض لتوهم أنهم التزموا جانبًا من شرع الله وقصروا في جانب آخر ، وهو خلاف الغرض من وصفهم بالاعتداء على منهج الحق ، وعدم الالتزام بشرائع السماء ، خضوعًا لأهوائهم . وهو ماض مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ (التوبة:٣٧) ، فإن الإنكار عليهم في تحليل ما حرم الله من الأشهر الحرم لا في تحريمها ، ولكن لما كان التحريم والتحليل بأهوائهم تحقيقًا لأغراضهم ، وليس التزامًا بشرع الله نسب التحريم إليهم لتكمل المناداة على ضلالهم .

---

(١) حاشية الشهاب ٧/٤٠ .

ولعل هذا ما قصد إليه صاحب التحرير والتنوير حيث قال : (ومحل الإنكار ابتداء هو جعلهم بعض ما رزقهم الله حراما عليهم ، وأما عطف ﴿ حَلَٰلًا ﴾ على ﴿ حَرَامًا ﴾ فهو إنكار بالتبع ، لأنهم لما عمدوا إلى بعض ما أحل الله لهم فجعلوه حراما وميزوه من جملة الرزق فقد جعلوا الحلال أيضا حلالاً) [1] .

ومن أمثلته أيضًا (قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠) ، فقد يقول قائل إن الغرض من نفي دعوى الأبوة يكفي في تأكيده والتعليل له قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ، فما باله ذكر ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ؟

والجواب أن قوله ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ يوهم أن يكون الرسول أبًا لما هو من صلبه ، مما يوهم توارث النبوة من بعده ، فكان قوله ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ دفعًا لوهم أن يعيش للرسول أبناء من صلبه يتوارثون النبوة . يقول الجمل : «ولما كان قوله ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ مظنة أن يتوهم أنه أبو أحد من رجال نفسه الذين ولدوا منه ، دفعه بقوله ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ، فإنه يدل على أنه لا يكون أبًا لواحد من رجال نفسه . أيضًا ، لأنه لو بقى له ابن بالغ بعده لكان اللائق به أن يكون نبيًا بعده ، فلا يكون هو خاتم النبيين اهـ زادة» [2] .

توهم الاستغناء عن حرف العطف :

وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ (الروم:٢٣).

فقد يقال : في الآية عاطف يمكن الاستغناء عنه لو جاء النظم هكذا ـ ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار ، كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ (يونس:٦٧) ، فلم عدل عنه ؟

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١١ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٤٤١/٣ .

والجواب : أن نظم الآية ، كما جاء في الذكر الحكيم ، عمد إلى غرض الجمع ، لا إلى التقسيم ، بحيث أوحى بأن كُلاً من الزمانين صالح لوقوع النوم والسعي فيه ، استقصاء لواقع الناس وتطورات حياتهم ، فإذا كانت معظم الآيات جرت على التقسيم فلأنه الغالب فيما نشاهده من أحوال الناس ، حيث الحركة والسعي بالنهار ، والهدوء والاستقرار بالليل ، لكن هذا لا يمنع أن يقع النوم بالنهار والسعي بالليل من كثير من الناس .

يقول الشهاب : « وقوله ـ بعاطفين ـ أي لم يكتف بعاطف بأن يقال : منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار (قوله إشعار إلخ) يعني أنه على تقدير اللف غير الترتيب ، مع أن القصد التوزيع للإشعار بأن كُلاً من الزمانين ـ الليل والنهار ـ وإن اختص على هذا التقدير إلا أنهما صالحان لكل منهما ، أما صلاحيتهما للمنام فظاهر من ذكرهما عقبه وتبادر تعلقهما به ، وأما صلاحيتهما للابتغاء فلأن القيد المتوسط متعلق بالمتعاطفين ، وإطلاق الابتغاء يدل على عدم اختصاصه بزمان »[1] .

وقد جوَّز الزمخشري هذا الوجه ، غير أنه جعله خلاف الظاهر . قال : « هذا من باب اللف ، وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين لأنها زمانان ، والزمان والواقع فيه كشيء واحد ، مع إعانة اللف على الاتحاد ، ويجوز أن يراد : منامكم في الزمانين وابتغاؤكم منهما ، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن ، وأسدُّ المعاني ما دل عليه القرآن »[2] .

والزمخشري في تضعيفه لهذا الوجه يستند إلى نظائر الآية في مواضع أخرى ، ويقيس الترتيب هنا على الترتيب هناك . لكنني أجد في هذه الآية ما لا أجده في نظائرها ، إذ إنها هي الوحيدة التي غويرت طريقة اللف فيها ، وهي الوحيدة أيضًا التي وردت بذكر النوم دون السكون، كما في سائر الآيات ،

---

(١) حاشية الشهاب ١١٨/٧ .

(٢) الكشاف ٢١٨/٣ .

وهذه دقيقة يجب مراعاتها في كتاب معجز يحرص على همس الحروف بله الكلمات .

فالسكون يعني ترك الحركة والهدوء والانصراف عن العمل والسعي ، وهي راحة إجبارية فرضها الله على الإنسان بستار الظلام الذي يعوق حركة من تسول له نفسه مواصلة الليل بالنهار تكالبًا على المادة ، وتجاهلاً لحق البدن عليه في الراحة ، والتقاط الأنفاس ، وتلك هي رحمة الله الخفية التي حمى فيها الإنسان من ظلم نفسه ، واستوجب الشكر عليها ، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص:٧٣) ، ولذا تغاير التعبير عن سلب هاتين النعمتين فقال عن الليل ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ ، وقال عن النهار ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ ؛ لأن غرض الظلام محصور في السكون ، وليس كذلك ضوء النهار الذي تتعدد فيه المنافع ، وهو ما أشار إليه الزمخشري بقوله : « فإن قلت : هلا قيل (بنهار تتصرفون فيه) كما قيل ﴿ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ ؟ قلت : ذكر الضياء ، وهو ضوء الشمس ، لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة »[1] .

فالحرص على بقاء النوع والميل إلى متع الدنيا ونعيمها غريزة فطرية في الإنسان تدفعه إلى الكدح والسعي الحثيث ، فهو ليس في حاجة إلى من يستحثه ، والخلود إلى الراحة هو الذي يحتاج إلى الإلزام من الله بنواميس كونه حتى لا يضن الإنسان على نفسه ، في غمرة انشغاله بالحياة ، بقسط من الراحة .

أما المنام فتلك نعمة أخرى يهيئ لها سكون الليل ولا يفرضها ، وربما ينام البعض بالنهار أكثر مما ينامون بالليل ، وإذا كان الغرض من الظلام أن يكون عائقًا لحركة الإنسان ليلجئه إلى السكون والاطمئنان ، فإن الذي أنزل هذا القرآن معجزة باقية يعلم أن الإنسان بهدي من الله متغلب يومًا على هذا الظلام

---

(١) الكشاف ١٨٩/٣ .

بوسائل يخترعها ، كالكهرباء التي حول بها الليل نهارًا ، فلو وكله إلى نفسه لواصل سعي الليل بالنهار ، ومن ثَمَّ كان النوم وسيلة أرقى من الظلام في فرض الراحة عليه ، حيث لا يستطيع أحد مغالبته في ليل أو نهار ، ولا يحتجب عنه بظلام أو ضياء ، ولذا جعله القرآن آية لا رحمة لأنه دليل قدرة الله التي تتضاءل أمامها قدرة الإنسان ، فقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ، لأن سلب الحواس بالنوم في ضوء النهار أدل على هذه القدرة ، كما أن الابتغاء من فضله بالليل ـ اهتداء بما ييسره الله للإنسان من وسائل العلم ـ آية أخرى ، ولعلها من تنبؤات القرآن بما سيحدث في المستقبل من غزو الإنسان للظلام بما اخترعه من وسائل الإضاءة ليتم ما أنجزه بالنهار ، وإن كان ذلك لن يجور على حق الأبدان في الراحة التي يفرضها الله بالنوم حين يضن بها الإنسان على نفسه . هذا سر المغايرة في النظم ، وهمس العاطف في الآية ، وهو آية الإعجاز في هذا الكتاب .